السيرة بين الذاتية و الروائية في الأدب الجزائري المعاصر قراءة في المفاهيم و المقاصد

د. بغداد برادي
قسم اللغة العربية و آدابها
كلية الآداب و اللغات و الفنون جامعةجيلالي ليابس- سيدي بلعباس الجزائر

الملخص:

يتناول هذا البحث بالدرس و التحليل جنسين أدبيين – و هما السيرة الذاتية و السيرة الروائية– من حيث التنظير، فيأخذ في بعض مسارهما ليحدد ماهيتهما المشكلة للحقيقة مفهوما و محتوى في عالم الكتابة، ثم يبحث في الجامع بين الجنسين في عناصر أدبيتهما بوصفهما حاويين لما يشكل أدبية النص من حيث فنيته الأسلوبية، لينتهي البحث إلى درس مقاصد السيرة خاصة الروائية منها بشيء من النظر التطبيقي الأخلاقي في بعض النصوص السيرية الروائية في الأدب الجزائري المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الأدب; أدبية ; السيرة ;السيرة الروائية ;الأدب الجزائري المعاصر

توطئة:

أنتج تقاطع السيرة الذاتية و السيرة الروائية – باعتبارهما فنين متماثلين في البنية الأسلوبية – إشكالا على مستوى المفهوم و المقصد ، إذ يجد الدارس لكل من الفنين مرجعية مشتركة تؤسسها وحدة موضوع الجنسين الأدبيين ، اللذين يقومان على أصل تتبع خبر الشخصية(الذات الساردة) أو قص الحدث الحياتي في تسلسل الزمن بقسميه الدهري أو الأدبي، كما أن التداخل الواقع بين الفنين يعود تحديدا لفعل رواية الحدث

السيري بصورة أسلوبية أو بأخرى، و إن اختلفت طبيعة الرواية من التاريخية إلى الأدبية. و حقيقة الأمر أن الفنين يشتركان في هذه الخاصية باعتبارهما يجنحان إلى ما يمثل جوهر الأدب، و هو الإغراء في تصوير الحدث بفضاءات تشكل ماهيتها نظرية الأدب في طبيعة السيرة الماثل في ذاتية بعدها المرجعي، و الشأن ذاته يقال في كتابة الفنين من حيث المسحة الوجدانية في خصوصية التركيبة الأسلوبية بمستوياتها.

إنّ تماهي الفنين في خاصية التصوير الخيالي و التعبير الوجداني يجعل مضامين السيرة الذاتية و الرواية السير ذاتية تغرف من معين واحد، و ذاك معين السير التي قرأ لها السارد في مرحلة من مراحل الحياة، و تأثر بها أو بفكرها، فتراه يقتبس من رصيد كتاباتها و يستشهد بنقولها أو يمثل حضورها تجارب في معترك الحيوات، بلغة تصويرية ينتابها الاسراف المغرق في الذاتية تارة، و في المثالية أخرى، و بين هذا الموقف و ذاك نتمثل تجارب في السير الروائية توسطت بين ضفتي الكتابة اعتدالا في المضامين و الرؤى الحياتية.

هذا ديدن الروائي الذي يسعى أن يتمثل مسار حياته في لحظات الكتابة، فتتمثل له مشاهد برؤى حادثة أو استشرافية، و كثيرا ما يسعى في راهن الكتابة –و ما تمليه من قيود التفكير– أن يجعل الحدث التاريخي الذي عاشه الروائي في مرحلة الصبا و الشباب مظهرا من مظاهر حياة الموهوبين و العظماء، و هذا المشهد لم يكن كذلك في زمن الحدوث، بل كان حدثا عاديا أو ضربا من الظلم سلطه عليه بعض المجتمع،كما يتجلّى ذلك في السيرة الذاتية الروائية في مؤلف (الكاتب– L'écrivain) لياسمينة خضرة، يتمثل هذا المشهد تحديدا في ظرف ألحقه من والده بمدرسة أشبال الثورة، و هو صبي في حدود العاشرة من عمره[1] .

إنّ الرواية السير ذاتية في عنايتها أساسا برواية الحدث في مشهديته الخيالية العاطفية تفارق نسبيا فن السيرة الذاتية التي تتتبع الحدث بنسبة من الموضوعية تكاد تمايز بها

شقيقتها الروائية، و هذا ليس شرطا في تصوير الحدث بأمانة، فالأمانة مفهوم نسبي في المصطلح النقدي، باعتبار أن الحقيقة الأدبية تخضع في ماهيتها لنسبية الرؤية ضمن نظرية الأدب ؛ و إنّما المقصد يكون في موضوعية نقل الحدث الذي يعود من حيث الأسبقية لفن السيرة الذاتية، و قد تقدمت في هذه الخاصية الرواية السير ذاتية.

هذا من جهة و من جهة أخرى، فإنّ قرب عهد السيرة الذاتية- و هي الفن القديم مع شقيقتها السيرة الغيرية أو الموضوعية- من الرواية التاريخية التي التزمت بمعيارية الاسناد و عدالة الرواة، بينما الرواية السير ذاتية قد استفادت كثيرا من أصول الرواية الأدبية في تأثرها بالمعايير الحداثية، و ذلك بعدم تقيدها بالأعراف الفنية الكلاسيكية و منها مطابقة الخبر الروائي للحادثة التاريخية، و حجتها في ذلك تباين الحقيقة الأدبية عن الحقيقة التاريخية.

إنّ الرواية السير ذاتية في تصويرها الحدث الماضوي لا تستشرفه رؤية مستقبلية و كفى، بل تستعين بالحاضر فكرا و مرجعية حضارية لتقف على مقومات الفن(الرواية السير ذاتية) المخالفة لكثير من الفنون في مقصديتها، إذ كثيرا ما تكون المقصدية الروائية ذاتية في تحقيق الذات الساردة كما تتمثلها الأهواء أو نرجسية المثال؛ و هذا إذا تجاوزنا المقصدية الفنية في رغبة تحويل الذات إلى رؤية إنسانية و قد أسرتها النموذجية الكتابية.

إنّ السيرة الذاتية و هي تشتغل على السرد التاريخي للحدث بقلم السارد، لا يمكنها أن تتحول إلى رواية سير ذاتية إلا إذا تحولت عن بعض معطياتها الفنية ، و قد نخص بالذكر ضرورة عدم مطابقتها التامة لموضوعية الحدث مجردا من الرؤى الراهنة أو المستقبلية، ناهيك عن عملية اسقاط السارد للملمح الحداثي في تصوير المشهد السيري خاصة في مرحلة من مراحل الطفولة الأولى، ذلك أن السيرة الذاتية فن له مقوماته التي عمقها فن الكتابة عبر تاريخ السيرة الذاتية.

1-السيرة الذاتية و الرواية السير ذاتية مفهوما:

لعل الحديث في مفهوم السيرة الذاتية و رؤيتها الفنية و الانسانية يوجب الحديث في مسارها التاريخي ابتداء، إذ أنّ الأدب العربي قد عرف شكلين من السيرة" الموضوعية(الغيرية) و الذاتية" ، و السيرة الذاتية هي التي تعنينا من حيث ميراثها التاريخي[2]، ليس و حسب من حيث تمييزها عن شقيقاتها، بل و كذلك عن الرواية و الرواية السير ذاتية بوصف هذه الأخيرة فنا استمد الكثير من أصوله الفنية من السيرة الذاتية. و هذا المعطى لا يستشكل ماهية السيرة الذاتية فقط، و لكنه معطى يستشكل كذلك الفوارق الفنية و المقاصد التي تشكل حيثياتها الأسلوبية التي تجعل السيرة الذاتية فنا له حضوره الذاتي و خصوصيته الفعالة، و لذلك و جدت السيرة الذاتية قبولا في الناس، ناهيك عن أهل الاختصاص[3].

1-1السيرة الذاتية مفهوما و مقصدا:

سبقت الاشارة إلى أن السيرة الذاتية (Autobiographie) شعبة من أدب السير و التراجم، يأخذ كاتبها في تدوين أخبار حياته و سردها بقلمه مشكلا إيّاها في صورة من صور التأليف الأدبي الذي يقتضي رسم معالم الحياة في نسق تتحكم فيه صيرورة التسلسل الزمني التاريخي للحدث، و قد تتداخل الأحداث، و ذلك بإجراء السارد تقنية التقديم و التأخير في الحدث. يقع ذلك لمقاصد سيأتي الحديث عنها.

أما السيرة من حيث الماهية اللغوية، هي لفظة من مادة(س ي ر) بمعنى الطريقة و السنة و الهيئة، و يراد بها حديث الأولين أو طريقتهم في الحديث[4]، و لقد ربطه زكريا إبراهيم بحركية مفهوم الحياة بين المقصد الفكري و الفعل[5]، قد يصح هذا عند البعض و قد يدفع من بعض، و ذلك باعتبار التباين الفكري العقدي، إلا أن الذي يعنينا من ماهية السيرة الذاتية، و قد أغفلته إشارة زكريا إبراهيم هو جانبها اللغوي؛ فالسيرة بوصفها نشاطا لغويا أدبيا قد يتجاوز مفهومه المقاصد و الأفعال إلى المناحي

الفنية و الملامح الأسلوبية، خاصة إذا كان المعيار النقدي الذي نقيس به الكتابات السيرية الذاتية غير أخلاقي كما هو الشأن في المناهج النقدية الحداثية.

فإذا كانت السيرة الذاتية في تعريفها الشامل العام، هي ذلك النوع الأدبي الذي يتناول بالتعريف حياة إنسان ما، تعريفا يقصر أو يطول، فإن جانبا كبيرا من جوانب الحياة يقوم على التفكر و التأمل من جهة، و السلوك و العمل من جهة أخرى و لكنها إلى جانب هذا و ذاك، فن أدبي جوهره التواصل اللغوي"[6]. و الحقيقة أن النشاط اللغوي هو الذي يحقق حضور السيرة الذاتية في عالم الكتابة الفنية. إن الحيوات تتباين و تختلف من إنسان لا صلة له بالكتابة الفنية عن كاتب متمرس في أدبية الكتابة و السيرة الأدبية تحديدا، و نحن بذلك لا ننفي السيرة الشفاهية في أدب الملاحم و السير الشعبية، و إنّما مقتضى موضوع البحث يلزمنا تجاوز السير الشعبية و الملحمية.

إن استقراء اللفظة في المعاجم اللغوية يعطي مفهومها أبعادا دلالية تتجاور بها دلالات الفعل و الفكر إلى المقاصد، و كل هذا يفيده التشكيل اللغوي لحياة علم من أعلام النشاط الإنساني من منظور الأنا، الذي كثيرا ما تشكل في أدب السير الحديثة ،كما في أدبنا الجزائري[7]. و مثل هذا المنحى تناوله بالتعريف التنظير الاصطلاحي، و ذلك بتحقيق أدبية الفن أولا، ثم تحليل الشخصية في إطار الثقافة الذاتية للسارد، و ذلك باعتبار أنّ السيرة "تتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر تعريفا يطول أو يقصر، يتعمق في تحليل الذات أو يبدو في تناوله سطحي التحليل ، تبعا لحالة العصر الذي كتبت فيه السيرة، و تبعا لثقافة المترجم و مدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة من جميع المعارف و المعلومات التي تجمعت لديه عن المترجم له"[8]، بدءا بأسماء الأعلام، إذ كثيرا ما "نجد السيرة الذاتية التي تصرح أو شبه تصرح بأسماء أصحابها"[9]، فتنحو منحى استعارية الاسم منهجا في الكتابة الأدبية.

و ينظر البعض للسيرة الذاتية من حيث تركيبها اللفظي، فيجعل لدلالتها الاصطلاحية معاني تابعة لدلالة الفظ الأول "السيرة"، فهي دالة على ترجمة حياة أو قصة إنسان، و مصطلح ذاتية، و تعني طريقة انتاجها أو منتجها"[10]. و قد انتهى عبد السلام المسدي إلى نحت مصطلح فن (السيرة الذاتية)إلى صورة تركيبية أخرى من لفظتي "السيرة" و "ذاتية" ، فجعله (السير ذاتي)[11].

و عليه، فقد حول المصطلح من التركيب الإسنادي إلى التركيب المزجي، و لعل عبد السلام المسدي أراد بهذا الاجتهاد في علم المصطلح اختزال المصطلح بحذف ما يؤنثه، ثمّ ما يجعل منه في الظاهر لفظين إلى مصطلح مركب تركيبا مزجيا يقارب مفهوم التحديث في النقد الأدبي المعاصر. إنّ السيرة الذاتية ليست وليدة المعاصرة ، بل هي وريثة الترجمة الذاتية التي عرفها التراث العربي القديم، فكثيرا ما كان يوقع العلماء و الأدباء في أوائل أعمالهم العلمية و الأدبية أو في نهاياتها بذكر سيرهم بصورة مختصرة[12]، يدرك المتلقي من خلالها نسبة العمل لصاحبه، فحقيقة تطور السيرة اقتضاء أوجبه التحديث، و لذلك نجد بعض الأدباء اجتهدوا في تحقيق سير ذاتية على النمط المستحدث المنسوب للأدب الغربي ميلادا. هذا خلاف قد لا يجدي الخوض فيه، إلا أن الذي لا يختلف فيه اثنان هو أن السيرة الذاتية ليست إلا امتداد لسالفتها الترجمة الذاتية.

قد يكون عامل الطول و القصر فارقا بينهما إلا أن جملة الأصول الفنية و الخصائص الأسلوبية وقعت إرثا من الترجمة الذاتية إلى السيرة الذاتية، و قد أعتقد قديما أن السيرة الفنية فن لن يصيبه ما يصيب الفنون من هرم و موت أو تماهٍ في فن آخر، فقد أشار إلى هذا المزمع فيليب لوجان بقوله:"يرتكز النوع على افتراضات الديمومة و الاستقلالية، و يقضي ذلك بالاعتقاد في نوع من الهوية التي لا يمكن أن تنتج إلا عن طريق سلسلات من المتميزات و من المبادئ"[13]؛ و الحقيقة التاريخية

أثبتت نقيض ذلك، فقد تحولت السيرة الذاتية إلى صورة جديدة تماهت فيها السيرة بالرواية المعاصرة.

1-2 الرواية السير ذاتية مفهوما و مقصدا:

يذهب النقاد في تعريف السيرة الروائية- كما يحلو للبعض تسميتها- مذاهب شتّى، لكن أكثرها رواجا لا يتجاوز المذهبين، سبقت الاشارة لواحد، و هو ذاك الذي يعتبر الرواية السيرية مجرد امتداد طبيعي للسيرة الذاتية، و هذا التفسير وارد معقول. و المذهب الثاني، هو المذهب الذي ينعتها ابتداء بالسيرة الروائية، ثم يعتبرها" كتابة سردية مهجنة من نوعين سرديين معروفين، هما: السيرة و الرواية. و لا يقصد بالتهجين معنى سلبيا، إنّما المقصود به التركيب الذي يستمد عناصره من مرجعيات معروفة، و إعادة صوغها على وفق قواعد مغايرة"[14]، و الحقيقة أن الأمر أبعد من ذلك، إذ أن نظرية الأجناس الأدبية تذهب الآن إلى تداخل سردي، بل شعري عم الأجناس لدرجة التماهي الذي ما عادت تتمايز فيه الأشكال الأدبية. و لعل هذا ما يفسر ذهاب البعض لمصطلح الكتابة بديلا لتصنيفات الأجناس الأدبية و أنواعها، و لعل هذا ما يجلي منطق من رأى أن الرواية (Roman) هي السيرة، و السيرة(Biographie) هي الرواية.

و هذا رأي يقتضي النظر فيه، بحيث أن الفنين(السيرة و الرواية) يشتركان في بعض الخصائص و يختلفان في بعضها، ثم إن السيرة بالمنظور النقدي القديم تستهدف غائية التقويم السلوكي من خلال تقديم النموذج الأمثل أو القدوة المقدمة للتأسي بها ، و السيرة الروائية قد تكون مثلها كذلك، لكن الذاتية نستبعد أن تكون الغائية منها تزكية الذات ، أو تقديمها نموذجا للاقتداء. فالغالب على أهل الكتابة تصوير الذات بصورتها الإنسانية، التي كثيرا ما يعتريها الخطأ في السلوك و عدم فهم الوقائع [15].

زد على ذلك، فكثيرا ما ينوه كتاب الرواية السيرية بقصورهم البشري ، و أنّ ذواتهم لا تعدو أن تكون كسائر الذوات الإنسانية في لحظات الضعف و الاستكانة إلى حظوظ النفس في استدراج الذات لاشباع نزواتها بطريق أو بآخر؛ و لذلك ، نجد كتاب الرواية السيرية أبعد الناس عن المقصدية التي تتحرى في سردها الحدثي نمطية تصوير الذات في صورة مثالية يكتنفها الخلق القويم من كل جانب. ليس هذا فحسب، بل كثيرا ما تنعت السيرة الروائية بالواقعية المفرطة التي يتردد صاحبها في كشف حقائق الصبا و الشباب في طيشها و رعونتها، ثم تراه يجزم بضرورة المكاشفة[16] ، لأن السيرة في اعتقاده يجب أن تكون كذلك[17]. و الأمر في حقيقته ليس كذلك، فالقيم التي ينشأ المجتمع عليها من الضروري أن تحترم، و إذا كانت المكاشفة- باعتبارها من أصول السيرة الروائية- من الضرورة بمكان، فلعل الأولى أن نأخذ بأسلوب الرمز و طريقة الاشارة التلميحية إلى مثل هذه الوقائع التي تخدش الحياء و تصادم الأخلاق؛ و قد يذهب البعض في تبرئتها و عدها من السلوكيات الفردية التي تعبر عن فرد شاء لنفسه ذاك الصنيع، الذي تكرسه الحريات الفردية في مجال الفكر والابداع، و في المقابل نجد من يستهجن هذا الأسلوب في رسم السارد لذاته في السيرة الذاتية الروائية، بل و نظيره كتعظيم الذات.

فهذا محمد آيت ميهوب الأكاديمي و الناقد التونسي لا يجد في الرواية السير ذاتية فضلا و لا أثرا إلا إذا تحققت فيها معالم أدبية نصها" ذلك أنّ النظر في أدبية الرواية السير ذاتية لا تكتمل إلا بالبحث في أخص خصائصها، و نعني بذلك: الحوار الأجناسي بين الرواية و السيرة الذاتية"[18]. و هذا مذهب لا أعتقد أن يختلف فيه اثنان، فجمالية النص الأدبي لا يأتي وقوعها في المضامين و إن سمت و علت، فكثيرا ما تسمو الأفكار و تسفل بها الكلمات و الأساليب، و في المقابل قد تبلغ الأفكار الحضيض و يرفعها النظم الجيد و التأليف الرفيع، فأدبية النص تقع في أدبيته الأسلوبية

و جمالية بناه، و ليس الجمال في كسر المعهود في فكر الناس و معتقده خاصة في المجال الاجتماعي و الأخلاقي، فالأديب يقاس بقلمه، ثم يرفع بخلوصه لقضايا أمته و مشروعها النهضوي، أما تزكية الذات أو كشفها، فالسؤال الذي يطرحه القارئ ، هو: ماذا استفدت من جديد في قراءتي لسيرة زيد او عمرو الروائية؟

فالحياة اليومية مليئة بمثل هذه الاحداث، بل أخبار الأعلام متواترة تنقلها وسائل الأعلام ليل نهار، إنّ الذي يقع من القارئ الأدبي موقع الغيث من التراب هو جمالية أسلوبه، و بديع نظمه لفكر منتج و نسق حياة ترسم معالم الطريق خاصة للناشئة. أما الحديث في عثرات الحياة و سقطاتها، فلا يرجى إلا تلميحا و تأشيرا ، و كم من النقاد من حذر من مثل هذه الكتابات في السير الروائية، و استهجن، مثل وليام غاس (William Gass) الناقد الأمريكي الذي شنّ هجوما ضاريا ضد هذا النوع الأدبي برمته في مقالة لاذعة في مجلة (هاربرس) الأمريكية العريقة، و تساءل فيه بحق و ببلاغة خطابية مذهلة :" عمّا إذا كانت هناك أيّة دوافع لــ (تجارة كتب السيرة الذاتية) ليست ملطخة بـ (الخداع) أو الرغبة في الانتقام أو (محاولة تبرير الأخطاء) أو ربّما (لنصفح أو نغفر) عن خطايا المؤلفين المذنبين؟ أو حتّى لنفخ(الأنا) المتضخمة التي تكاد تنفجر سلفا لكبر حجمها"[19].

هذا لا يستسيغه العقل باعتبار أن هذا الفرد صاحب قلم موهوب، ثم هو من النخبة المبدعة التي تتمثلها الطبقة القارئة نموذجا يقتدى به ، فمن باب أولى أن نتحفظ في هذه المسائل بالتلميح و الاشارة الذكية، و لو كان الخلاف في مجال الفكر و القيم التي تعرض السيرة الذاتية أو الرواية السير ذاتية، لخفّ الأمر و الوقع على المتلقي، فبعض المسائل أهون من بعض، باعتبار أن الاختلاف وارد بين البشر، فانظر إلى القديس أوغستينون كيف يقف من حقيقة الاله المعبود و كينونة الانسان في معرض حديثه عن قيمة القيم (المحبة المطلقة) في منطق المعتقد المسيحي، يقول: "

أقول من ناحية أخرى إنّ تلك الثلاثة هي: الكيان و المعرفة و الإرادة، فأنا أكون، و أعرف و أريد: أنا عارف، و مريد، و أعرف أنّي أكون، و أريد، و أريد أن أكون و أن أعرف. إذن في هذه الثلاثة، كم تكون الحياة غير منفصلة عن الحياة الواحدة، و عن العقل الواحد، دون أن يمكن التمييز بينها ممكنا، و هو مع ذلك حق... و هل يكون الإله بسبب هذه الثلاثة عناصر هو الثالوث(La Trinitè= Trinitas)، أم هل يكون الإله في كل واحد منه ثلاثتها، بحيث يوجد الثلاثة في كل عنصر على حدة، أم هل أنّ كلتا الحالتين عبارة عن البساطة العجيبة في التعدد، أو الثالوث الذي هو غاية ذاته اللاّنهائية"[20]. قد يستساغ هذا الطرح باعتباره واردا في معتقد طائفة إنسانية عريضة في عالمنا اليوم، أما عرض قضية يستهجنها الخاص و العام، فالأولى أن ترد أو تطرح أو يتناولها السارد بلغة الايحاء و الاشارة لمقصدية سامية ، و ليس من باب الذكر و كفى.

إنّ الرواية سير ذاتية في انطوائها على كثير من الخصوصيات الذاتية الحميمية– شأنها في ذلك شأن السيرة الذاتية– تمثل خصوصية فارقة، ذلك أن السيرة الذاتية بوصفها قديمة مقارنة بالرواية السير ذاتية، ثم بوصفها سلفا للرواية السير ذاتية، لم تبلغ هذا النحو من المكاشفة في ما يستهجنه الخاص و العام. صحيح أن العصر عصر الرواية السيرية ، إذ نلمس في السيرة الذاتية واقعية زائدة في تصوير الذات، و كأنّها ثابتة غير متطورة و لا نامية، و ذلك " لدوران مصطلح السيرة حول تاريخ حياة فرد"[21] بخلاف الشخصية في الرواية السيرية، فهي شخصية نامية فنية أكثر منها واقعية، و بانفكاك عنصر الشخصية من أسر المعيارية الأخلاقية، و بذلك تحقق الرواية السيرية مقصدا من مقاصد السارد في تحقيق الذات كما يشتهي[22] و يحب.

و لعل الطبيعة الروائية التي أسس لها المخيال الفني في تصوير الحدث و الشخصية، هو الذي أضفى علي السيرة الروائية هذا الطابع المتحرر من قيد مسار حياة السارد ،

و هي ترسم ملامح الشخوص و تبني حيثيات الحدث، و تشكل بنى الذات الجسدية و النفسية. ثمّ –كذلك– هو العامل الذي يحرر السارد من كل قيد و حد، بل إن خاصية السيرة الروائية الأساسية هي كسر القيد الفني كيفما كان، و خرق سنن القواعد الفنية للرواية السيرية هو سبيل السارد، لاعتبارات عديدة، و لعل منها الطبيعة الفنية للسيرة الروائية في تداخل الأجناس الأدبية، و تمازج أصولها الفنية و طرق تعبيرها الأسلوبية، فمن خصائص الرواية السير ذاتية" أنّها جنس أدبي يسعى دائما إلى احتواء الأجناس الأخرى و تذويبها فيه، فيتجاوز التناص في بعض الروايات التداخل بين نص و آخر، ليغدو تداخلا بين الرواية و غيرها من الأجناس الأدبية"[23]. و لعل امتداد السيرة في الرواية المعاصرة حياة جديدة لها، لأن السارد في الفنين –السيرة الذاتية و الروائية – عندما يقول أنا، فإنّه يعتقد أنّه " هو الذي يتكلم، و يؤمن بالجوهر المقدس"[24]. و الحقيقة ليست كذلك، فالكلام في السير ذاتية كانت أو روائية يكون متصلا بصورة او بأخرى بوجهة نظر السارد في الغالب، حتّى أن بعض المنظرين للسير من أدرج فعل تبئير الكلام في السرد أو الرواية، بل هناك من دارسي السير من جعل الرؤية الفكرية المنسوبة لشخص من شخوص السير بمثابة الأصوات أو معادلة لها، و قد أشار لمثل هذا ميخائيل باختين(M.Bakhtine) فيما نعته بنظرية تعدد الأصوات(Polyphonie)، و لقد انتهى باختين في دراسته لنصوص دوستيفسكي إلى سمة مهمة في السرد الروائي، و هي السمة الجامعة في تماثل الرؤية الصوت في رسم شخوص العمل الفني[25]. كما أشار باختين إلى هذا في بعض أعماله، و هو بمعرض الحديث في المتكلم في الرواية، يقول: "... هنا ... أدرج في كلمة المؤلف(القص) كلام الآخر في شكل خفي أي دون أي سمات شكلية لكلام الآخر بلغة غريبة عن المؤلف "[26]، ما يعني أن شخصية السارد في عملية الكتابة

تتدافعه الحياة من خلال الأحداث الواقعية التي عاشها و العمل الفني الذي تتجاذبه شخوصه الورقية، و ذلك لما تتلبس السارد من هيمنة المخيلة السردية.

و عليه، تكون عملية استحضار الشخوص في الكتابة الروائية السيرية ضربا من تشاكل الرؤى لتعدد أصوات الشخوص، و إنّ تداخلها في السيرة الروائية، و قد تعدد و تشاكلت في الشخصية النفسية للذات المترجم لها، و هذا من دواعي رفع المصداقية لمطابقة الواقع المعيش، فحقيقة الغاية في السيرة الروائية غاية فنية أسلوبية، ذلك أن الروائي السير ذاتي هو صنيع مرجعيات نصية شكلت فكره و أطرت كتاباته الروائية و الفنية، ليتحول العمل الفني الابداعي إلى تجارب إنسانية، ليس للروائي فيها يد، إلا إذا استثنينا صنيع الابداع في تنسيق الحدثي و تشكيله رؤية و تعبيرا، قد عبّر عن هذه العملية أمبرتو ايكو بالتصوير الابداعي الذي يجعل من النص فرجة معرفية لا تنتهي عند حد، أو يحول الوضع الفردي إلى الوضع الانساني العام[27]. و السارد ليس أمام مادة خام و حسب، و لكنه –كذلك– أمام وضع إنساني و ظرف نفسي و أسلوب في كتابة السير.

فالمسألة نسبية كما سلف الذكر، صحيح أنّ السيرة الذاتية أكثر مصداقية في مطابقة الحدث الفني للحدث التاريخي أو مماثلة الرواية الأدبية للرواية التاريخية في الواقع من الرواية السيرذاتية، لكن نسبية الحدث تبقى كذلك خاصة في الرواية السير ذاتية، ذلك أن الرواية باعتبارها غربية الهوية لا تحتكم إلى مقاييس إذا استثنينا الأدبية و النقدية، بخلاف السيرة الذاتية العربية، فهي في طبيعتها و هويتها عربية الروح و المنشئ.

و عليه ، فهي أكثر التزاما بالحقيقة التاريخية من شقيقتها الرواية السيرية، فكتاب السير العرب كانوا أكثر تحفظا تحرّيا في رواية الأخبار حتّى الذاتية منها، "و كانوا أسبق إحساسا بمعنى الاعتدال في الحكم و التقدير، واضعين الصواب إلى جانب الخطأ حين

يتحدثون أو يترجمون، لأن علم الرجال علمهم أن هناك جرحا و تعديلا، و أن هناك مرتبة وسطى تجمع بين الجرح و التعديل و لذلك لم تكن السيرة مدحا مطلقا، أو ذما مطلقا، بل كثيرا ما كانت تجمع بين هذين في صدق و اعتدال"[28].

و الشأن كذلك يذكر في الغايات، فمن المقصد التربوي الذي طغى على السيرة الذاتية القديمة، و إن كنّا نلمس كثرة تجاوز هذا إلى المكاشفة أو الاعترافات في السيرة الروائية ، و التي كثيرا ما تخلو من المقاصد المذكورة سلفا كالتربوي، إذا تجاوزنا التأريخ للذات أو لنقل ما كتب بأسلوب أدبي لحقبة زمنية مضت و انقضت و عفا عليها الزمن. لكنّ المقصدية الكتابية في السيرة أو في الرواية السير ذاتية يجب أن تعتبر المتلقي باعتباره قارئا يملك مرجعيات يعود إليها في عملية القراءة، كما يملك كفاءات يعتمدها في تأويل المقروء؛ و محصلة هذا تفيدنا أن" الكتابة عن الذات تتضمن بالضرورة منظورين للأنا... منظور الاختيار الذي يوجه الاستراتيجية الناظمة للقول، من خلال الكتابة عن ماضي الأنا، و منظور الاضطرار الذي يمكن أن يحمل القارئ(المتلقي) على استقبال تلك الاستراتيجية و التفاعل مع حوافزها الكتابية"[29]، ثمّ إنّ السيرة بشكليها ليست إلا حلقة إبداعية يتنازعها قطبان تسعى بتوسط ارضاء حياتيّا أو فنّيّا أو إشباع الحقيقة تصويرا أو المتخيل فنّيّ.

الهوامش:

[1]Voir,Yasmina Khadra, L' écrivain, èditions Julliard, Paris, 2001.

[2] " افضى الموروث الضخم للمرويات السيرية بأنواعها: التراجم، و السير الذاتية، و السير الموضوعية، و السير الشعبية، على تشكيل فضاء دلالي عام لمصطلح السيرة، و هو فضاء مملوء بالتنوعات العامة و الخاصة و تتحدد الدلالة الدقيقة للمصطلح طبقا للسياق الذي يرد فيه ، و حسب الشكل السردي الخاص به ، و بالإجمال يحيل لفظ السيرة دلاليا على الطريقة و تقترن الطريقة بالسنة، فثمة تلازم بينهما، فسنة القوم طريقتهم، و سيرتهم، و لهذا فمن المعاني الأساسية للسيرة الطريقة المحمودة المستقيمة. كما تدل السيرة على الحديث، فيقال " سيّر سيرة: حدّث أحاديث الأوائل" ... توسّع مفهوم السيرة تبعا لتنوع الأشكال السيرية ... و مصطلح السيرة الذاتية يدل على الكشف الذاتي عن جانب من جوانب الحياة الشخصية". ينظر: عبد الله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2005 ، ص174.

[3] و هذا لا يعني أن الرواية السير ذاتية لا تجد قبولا عند الناس ، بل بالعكس ، فإن تداخل أجناس الأدب في هذا الفن المعاصر المستحدث (الرواية السير ذاتية) خلق جوّا من الإعجاب في الناس لدرجة قل نظيرها في أصناف الآداب قاطبة.

[4] ينظر لسان العرب لإبن منظور، مادة(س ي ر) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2003 ، 451/4. و تاج العروس للزبيدي ، مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ،1306هـ ،مج387/1.

[5] ينظر إبراهيم زكريا، مشكلة الحياة ، مكتبة مصر ، القاهرة ، دط ، دت ، ص 20.

[6] عبد العزيز شرف ، أدب السيرة الذاتية ، مكتبة لبنان ، و الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر ، دط ،1991، ص3.

[7] السيرة الذاتية للشيخ البشير الإبراهيمي(أنا)، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، ج21 ، 1386 ، 1966.

[8] ينظر:محمد عبد الغني حسن ، التراجم و السير ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط3 ،1980 ، ص28.

[9] جورج ماي ، السيرة الذاتية ، تر: محمد القاضي و عبد الله صولة ، بيت الحكمة ، تونس ، ط1 ، 1992 ، ص 199.

[10] عبد المعطي إبراهيم هواري ، لغة التهميش ، سيرة الذات المهمشة ، دار الثقافة ، الشارقة ، الامارات العربية المتحدة ، ط1 ، 2008 ، ص22.

[11] ينظر: عبد السلام المسدي، المصطلح النقدي ، مؤسسة ابن عبد الله للنشر التوزيع ، تونس ، 1995 ، ص62.

[12] ذكر يحي إبراهيم عبد الدايم هذه الطريقة في كتب التراث، و أشاد بحضورها في مصنفات القدامى، و اعتبرها إشارة لا غنى لنا عنها تضيئ لنا السبيل لدراسة نماذجه في أدبنا الحديث، و ذكر نماذج لها لدى عبد الرحمن بن خلدون ، و الشعراني ، و السهروردي ، و غيرهم..." ينظر: يحي إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، دط ، دت، ص 38 و ما بعدها.

[13] فيليب لوجان، السيرة الذاتية، الميثاق و التاريخ الأدبي ، تر: عمر حلي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1994 ، ص79.

[14] عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص665.

[15]نذكر على سبيل المثال: إشارة وسيني الأعرج إلى جملة أخطاء الصبا و الشباب ، ثم ذكره عدم قدرته على فهم الكثير من الأحداث مثل(دفن الأقلام و الدفاتر و حبات البن في التراب) تنظر: سيرة المنتهى، عشتها...كما اشتهتني، رواية سيرية ، منشورات بغدادي ، الرويبة ، الجزائر ، 2015 .

[16] تنظر : مرحلة تمدرس واسيني الأعرج في ثانوية بن زرجب بتلمسان في سيرته الذاتية الروائية سيرة المنتهى.

[17] كثيرا ما نجد من المنظرين للسيرة الذاتية أو السيرة الروائية من يستهجن عملية البوح بالأحداث التي تصادم الأخلاق و الأعراف و الذوق العام، و الغريب أننا نجد هذا حتّى عند بعض الكتاب الغربيين مثل الناقد الأمريكي دانيال مندلسون الذي تحكم في بداية مقال له بظاهرة البوح الفضائحي المنحط في كتب السيرة الذاتية، و لقد عدَّ سيجموند فرويد فعل البوح الفضائحي في السير الذاتية من الأمور السخيفة للغاية، بل لقد اعتبره سلوكا متهورا، فانظر إلى بعض قوله في سيرته: " ظاهريا.. حياتي مرت بهدوء و بشكل هادئ و يمكن تغطية أحداثها بتواريخ قليلة، و لكن داخليا و لمن عرفوني بشكل أفضل ؟كانت الأمور أكثر تعقيدا قليلا؛ فمن ناحية ، الاعتراف المعبر و الكامل و الأمين عن الحياة، يتطلب الكثير من التهور الطائش للبوح الفضائحي عن شخصي فضلا عن الآخرين من الأسرة و الأصدقاء و الأعداء... و هذا أمر

، ببساطة ، خارج المسألة بالنسبة لي". ينظر: دانيال مندلسون و آخرون، نهاية الرواية و بداية السيرة الذاتية، تر: حمد العيسي ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، لبنان ، ط1 2011 ، ص138-139.

[18] محمد آيت ميهوب، الرواية السيرذاتية في الأدب العربي المعاصر، كنوز المعرفة ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2016 ، ص 451.

[19] دانيال مندلسون و آخرون، نهاية الرواية و بداية السيرة الذاتية، تر: حمد العيسي، ص142.

[20] القديس أوغستينوس، إعترافات ، تر: إبراهيم الغربي، دار التنوير ، بيروت ،لبنان ، ط2 ، 2015 ،ص277.

[21]السيرة الذاتية و ملامحها في الأدب العربي المعاصر(مقال)، سيد إبراهيم آرم، مجلة دراسات الأدب المعاصر، مجلة فصلية ،بيروت، لبنان، السنة الثالثة/ ع:11، 2001 ، ص13.

[22] لا كما صرّح الروائي الجزائري واسيني الأعرج في روايته السيرية " سيرة المنتهى... كما اشتهتني ".

[23] محمد آيت ميهوب، الرواية السيرذاتية في الأدب العربي المعاصر،ص235.

[24] فيليب لوجان، السيرة الذاتية، الميثاق و التاريخ الأدبي ، ص17.

[25] ينظر: ميخائيل باختين، شعرية دو ستيفسكي، تر: حياة شرارة، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط1، 1986، ص113.

[26] ميخائيل باختين ، مختارات من أعمال ميخائيل باختين ، تر: يوسف الحلاق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2008 ، ص85.

[27] ينظر: أمبرتو ايكو ، آليات الكتابة السردية ، تر: سعيد بنكراد، دار الحوار ، سوريا ، 2009 ، ص 12.

[28] إحسان عباس ، فن السيرة ، دار صادر، بيروت ، دار الشروق، عمان، ط1 ، 1996، ص113.

[29] عبد القادر الشاوي، الكتابة و الوجود، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، دط، 2000 ، ص 139.